



الأبعاد الوجودية والهوياتية في الخطاب الشعري
الإفريقي المعاصر- نماذج مختارة-

The Existential and Identity Dimensions in Contemporary
African Poetic Discourse: Selected Models

مزارة جميلة . معازيز بوبكر

مخبر الخطاب الحجاجي أصوله و مرجعياته وأفاقه في الجزائر

¹ جامعة ابن خلدون. تيارت. (الجزائر)، mezara.djamila@univ-tiaret. dz

² جامعة ابن خلدون. تيارت. (الجزائر)، maziz_69@yahoo. fr

ملخص:

إنَّ الشَّعْرَ الإفريقي يَعْكُسُ غَالِباً الْحَقِيقَةَ وَالتَّجَارِبَ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمُعَقَّدَةَ فِي الْقَارَةِ السَّمَاءِ حَيْثُ يَتَنَاوَلُ قَضَايَا الْهَوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْإِسْتِعْمَارِ وَالصِّرَاعَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَيُعَبِّرُ الشُّعْرَاءُ مِنْ خِلَالِهِ عَنْ تَجَارِبِهِمْ وَيُسَلِّطُونَ الضُّوءَ عَلَى تَارِيخِهِمْ وَتُرَاثِهِمْ بِأُسْلُوبٍ فَنِّيٍّ مُتَمَيِّزٍ، إِنَّ الشَّعْرَ الإفريقي يَنْسَجِمُ مَعَ تَنَوُّعِ اللُّغَاتِ وَالثَّقَافَاتِ فِي الْقَارَةِ مَعَ التَّرَكُّيزِ عَلَى قَضَايَا الْهَوِيَّةِ وَالْإِنْتِمَاءِ، وَيُقَدِّمُ مَثَباً لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْإِلَامِ وَالْأَمَالِ فِي ظِلِّ التَّحْدِيَّاتِ الَّتِي وَاجَهَتْ الْقَارَةَ مُنْذُ بَدَايَاتِ الْإِسْتِعْمَارِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، فَقَدْ جَسَدَ مَجْمُوعَةٌ وَاسِعَةٌ مِنَ التَّجَارِبِ الْإِنْسَانِيَّةِ، بِدَايَةٍ مِنَ التَّمَرُّدِ ضِدَّ الْإِسْتِعْبَادِ إِلَى التَّصَدِّي لِلتَّحَوُّلاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَالْقَضَايَا الْمُعَاصِرَةِ، إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ فَهُوَ يُعَبِّرُ عَنْ قَلْقِهِ الْمُسْتَمِرِّ تَجَاهَ نَظَرَةِ الْآخِرِ وَحُدُودِهِ الْمَرْسُومَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى نَظَرَتِهِمِ الْإِسْتِعْلَائِيَّةِ وَمُصَالِحَتِهِمِ الْخَاصَّةِ رَغْمَ انْتِهَاءِ الْإِسْتِعْمَارِ كَذَلِكَ يَعْكُسُ غِنَى الثَّرَاثِ وَالرُّوحَانِيَّةِ الْمُتَجَذِّرَةِ فِي ثَقَافَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ عَبْرَ الْقَارَةِ الْإِفْرِيْقِيَّةِ.

كلمات مفتاحية: الزُّنُوجَةُ؛ الشَّعْرُ الإفريقي؛ الْإِنْسَانُ؛ الْهَوِيَّةُ.

Summary

African poetry often reflects the truth and complex human experiences in the dark continent, as it addresses issues of cultural identity, colonialism

and social conflicts. Through it, poets express their experiences and shed light on their history and heritage in a distinctive artistic style. African poetry is in harmony with the diversity of languages and cultures in the continent, with a focus on issues of identity and belonging, and provides a platform for expression. From the pains and hopes in the shadow of the challenges that the continent has faced since the beginning of colonialism to this day, it has embodied a wide range of human experiences, starting from the rebellion against slavery to confronting modern social transformations and contemporary issues. In addition, it expresses its ongoing concern about the view of the other and its drawn borders based on their superior view and their own interests despite the end of colonialism. It also reflects the richness of heritage and spirituality rooted in different cultures across the African continent.

Keywords: Negritude; African poetry; man; identity.

1. مقدمة :

إِنَّ مِنَ الْهُمُومِ الَّتِي تُوَاجِهُ الْقَارَةَ السَّمْرَاءَ، وَتُهَدِّدُ وَحْدَتَهَا والتي تعدّ مِنْ أخطرِ الأزماتِ وأكثرها تعقيداً وَجَدلاً؛ الهويّة الّتي تتعلّقُ بالإنسانِ الإفريقي وَبتكوينِ شَخْصِيَّتِهِ وشُعُورِهِ المُشتركِ، بَيْنَ أَفرادِ بني جِلْدَتِهِ الّتي تُميزُهُ عَنْ باقي المُجتمعاتِ.

فمن الدّوافعِ الرّاميةِ إلى تأكيدِ الهويّةِ الإفريقيّةِ ما يشهدهُ العالمُ اليّومُ مِنْ تَغْيِيراتٍ وأحداثٍ كَثيرةٍ، والمُتمثّلةِ في علاقاتِ التّأثيرِ والتّأثّرِ والانفتاحِ والتّقوّعِ والنّمو والتّطوّرِ والتّخلفِ والتّراجُعِ، ومِمّا لاشكّ فيه أنّ هَذِهِ الثّنائياتِ الضّديّةِ وعلاقتها بالعوّلةِ أَصْبَحَتْ تُباشِرُ تأثيرها على الأجيالِ المُتعاقبةِ، مِمّا صارَ مِنَ الضّروريِ استعادةُ هَذَا المُجتمعِ لتوازُنِهِ المُفقودِ والدِّفاعِ عَنْ هُوِيَّتِهِ وَتِراثِهِ وثقافتهِ وهُمومِهِ، والحفاظِ على توازُنِهِ في ظِلِّ التّحوّلاتِ الرّاهنةِ وطُغيانِ لمركزيّةِ الأبيّضِ وهيمنتهِ الثّقافيّةِ ونَبْدِ الآخرِ وتَعزيزِ، هَذِهِ الهويّةِ مِنْ خِلالِ ضَرُورةِ بناءِ ثوابتِ راسِخةٍ واحترامها داخلَ الإطارِ الثّقافيِ الواحدِ مما أدّى بالأدبِ الإفريقيِ إلى حَمَلِ هُمومِ الهويّةِ والأنشغالِ بها، فالأدبُ هو وسيلةٌ للمقاومةِ والتعبيرِ عن الخاصّيةِ، وقد نجحَ العديدُ مِنَ الأدباءِ في إفريقيا في تعريةِ الاستعمارِ وفضحِ ممارساتِهِ..

وقد تصدّى الأدبُ ما بعد الكولونيالي في القارة الإفريقية لمحاولاتِ طمسِ الهويّةِ المحليّةِ، مركزاً جهوده على خلخلةِ المركزيّةِ الأوروبيّةِ مِنْ أَجلِ رسمِ خارطةٍ جديدةٍ لثقافاتِ العالمِ وتَعزيزِ حضورِ الثقافةِ الإفريقيّةِ محلياً وعالمياً، ويعودُ تطوّرُ هَذَا النوعِ مِنَ التيماتِ إلى فترةِ الاستعمارِ، حيثُ كانَ يَستخدمُ كوسيلةٍ للتعبيرِ عن الغضبِ والاستياءِ تجاهِ الهيمنةِ الاستعماريّةِ وتجاوزاتها، ويستندُ على الأحداثِ التاريخيّةِ والواقعيّةِ للفترةِ الاستعماريّةِ، التي

تعكس النظرة النقدية للأدباء للمستعمرين ونظام الاستعمار بشكل عام. فيتم استخدام الأدب أو ما يسمى بالأدب الكولونيالي لرسم صورة قوية للأثر النفسي والاجتماعي والثقافي للاستعمار على الشعوب، وتقويضها وإبرازها للعام في بنى وأنساق مضيئة، ومن بينها الشعر الذي يعد جزء لا يتجزأ من المقاومة الثقافية، ولذلك وجدنا عديد الشعراء الأفارقة يعلنون ثورتهم الثقافية ضد الاستعمار الأوروبي لبلدانهم... وتحفي أشعارهم بتجدد المقاومة بكل أشكالها، فالشعر قد ارتبط بمفهوم الوطن وبالتحرر والخلاص من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وقد استمر في رصد معاناة القارة منذ أن كان مشافهة إلى أن اتسعت دائرته وكبر حلمه بوجود دور النشر، رغم صعوباتها وفرض العنصرية على كل السود، والتي حالت دون شيوع الشعر الإفريقي، وهذا ما جعل الكثير منهم يتجهون للكتابة باللغات الأجنبية أو ترجمة أعمالهم بحثاً عن الحرية والتعبير عن القهر المعاش في أعمالهم الإبداعية محاولين بذلك تعميق الرؤية بخلق معاني معبرة عن وعيمهم بهويتهم وذواتهم وترسيخ القيم الاجتماعية الأصلية وعلى أهمية الإنسان والتي تصبح كل المفاهيم بدونها فارغة.

وهدف هذا البحث هو أن الهوية ووعي الذات الإنسانية من أهم الموضوعات التي شغلت العصر وكان لها حضوراً كبيراً تضاريس الفكر، وقد كانت القارة الإفريقية من أكثر المساح تجسيدا لهذا الموضوع نظراً لما عانتها من قهر واستغلال وعنصرية لشعوبها، وهذا البحث قد حاول متابعة معاناة الشاعر الإفريقي، وما اختلج في نفسه الواعية بحريتها معبرا عن ذلك بشعره، وقد اخترنا الشاعر (محمد الفيتوري) كونه أحد رواد الشعر الحر والشعر الإفريقي والعربي، إضافة إلى بعض الشعراء الأفارقة الذين تبنا مفهوم (الزّنوجة) في أشعارهم ومجدوا اللون الأسود مفتخرين به مثل (سنجور) و (أرماتو).... معتمدين على التحليل والتوصف و محاولة تحديد نقاط التعبير عن الهوية الإنسانية في شعر النماذج المختارة لمعرفة الأسباب التي دفعت بهم لمواجهة الآخر من خلال فهم والتعامل مع هذا المستعمر بأبعاد إنسانية نابعة من ثقافة الإنسان الإفريقي بنصوص شعرية جمالية ذات خيال، ورمز وخلق أحدثت باتساعها الدلالي التميز والتفرد، وهذا ما يقودنا لطرح الإشكالية التالية: كيف عالج الشعر الإفريقي قضية الهوية الإفريقية وتحدياتها المعاصرة، وما هي الأبعاد الفكرية والفنية التي تناولها الشعراء في معالجتهم لهذه القضية ؟

ومن هنا تتبادر لنا عدة تساؤلات منها، من أنا؟.. من أنت؟.. من هو؟ وما الأرض التي تضمّني؟ ومن الناس الذين معي؟ وما التاريخ الذي نتشاركه معاً؟.. وديمومة هذا السؤال المؤرّق لكثير من الأفراد والجماعات، والمجتمعات والأمم، والإشكال المحيّر لكثير من المفكرين والفلاسفة ومُنظّري الثقافة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع؛ الشعراء ذوي الحساسية المفرطة تجاه الهوية والانتماء منهم من تخبّط فيها ومنهم من أخلط حتّى صارت قضية أشبه بالهلام الذي لا ينقبض، أو مسألة زئبقية لا تلامس يد من يحاول الإمساك بها؛ وهي تتفلت وتتعالى عن التعريف، حيث صارت من أعقد ما واجه الفلاسفة والمفكرين والمنظرين وعلماء الأنثروبولوجيا في السابق، وفي عصرنا الحالي، وربّما تبقى المسألة عالقة حتّى يرث الله الأرض ومن عليها.. لعلّي أفترض من أوّل السؤال فرضية وحيدة أن الهوية هي الإنسان مضافاً إلى التاريخ والجغرافيا والثقافة والمجتمع؛ وعلى أساسها تكون قراءة هذا المقال.

2. الهوية والإنسان

2.1 الهوية لغة:

من المعروف بداهة أنّ الهوية في اللّغة لفظ مُشتقّ من ضَمير الغائب هو، وتعني سمات الإنسان، وكذلك تُستخدم إشارة إلى المعالم والخصائص التي تُميّز شخصيّة الفرد. حيث جاء في معجم لسان العرب لابن منظور أن "الهوية" في اللغة "تصغير هوة، وقيل الهوية بئر بعيدة المهواة"¹. والهوية مصدر صناعي من كلمة (هو) للدلالة على أن الشيء هو هو وليس غيره...² أي أن الهوية تعني أن الشيء هو ذاته نفسها دون غيرها، أما معجم الوسيط فيعرف الهوية بأنها حقيقة الشيء، أو الشخص التي تميزه عن غيره "حين تضاف إلى كلمة بطاقة أو توصف بالنعت الشخصية، لتجعلنا نحصل على المصطلح بطاقة هوية أو البطاقة الشخصية يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله"³، بمعنى أنها مرتبطة بما يميز الشخص عن غيره، بما تحويه من دلالات ورموز لذاته.

2.2 اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فالهوية لفظ متمنع ومع ذلك تناوله التفكير بالدرس والتدقيق في مختلف التخصصات، ويشير المعنى العام للكلمة إلى الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات، وما يميز به الفرد أو المجتمع عن غيره من خصائص ومميزات، ومن قيم ومقومات⁴، إذ تتضمن مفهوم الشّعور بالانتماء المجتمعي والقومي والديني وهو بذلك

حاضر في كل المجالات الحياتية والثقافية، يقول أبو نصر الفارابي "هو الشيء وعينته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له كل واحد. إنه هو إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع في اشتراك"⁵. أي أن مفهوم الهوية يتغير من مجال معرفي إلى آخر.

- ففي المنطق الأرسطي الهوية أو الذاتية قانون يحكم الفكر والتفكير ويجنبه الوقوع في الخطأ والتناقض خلال عملياته الاستدلالية، مؤداه ومفاده أنّ الشيء هو هو ثابت لا يتبدّل ولا يتحوّل من هو إلى ليس هو، فلا يكون الشيء هو وليس هو في الوقت نفسه، إمّا الشيء هو أو لا هو⁶.

- أمّا في علم الاجتماع فالهوية مرتبطة ومتعلقة بهوية الشخص في إطاره الاجتماعي؛ حيث يشعر بأشخاص من ذلك المجتمع الذي يعيش فيه وينمو فيه⁷. إذ لا بد لذلك الشعور أن يكون شعوراً قوياً بهوية مميزة.

كما تعرف الهوية: "بأنها الخصوصية والتّميّز عن الغير أو مجموعة من المميزات التي يمتلكها الأفراد، وتساهم في جعلهم يحققون صفة التفرد عن غيرهم، وقد تكون هذه المميزات مشتركة بين جماعة من الناس سواءً ضمن المجتمع، أو أنها كل شيءٍ مشترك بين أفراد مجموعة محددة، أو شريحة اجتماعية تساهم في بناء محيط عام لدولة ما، ويتم التعامل مع أولئك الأفراد وفقاً للهوية الخاصة بهم"⁸. أي الاختلاف والتغير.

ورغم أن الهوية موضوع ميتافيزيقي، فإنها مسألة نفسية وتجربة شعورية فالإنسان قد يتطابق مع نفسه أو ينحرف عنها في غيرها. الإنسان الواحد ينقسم إلى قسمين: هوية وغيرية، أو يشعر بالاعتراب إن مالت الهوية إلى غيرها أو انحرفت عن ذاتها. فالاعتراب لفظ فلسفي والانحراف لفظ نفسي. والهوية أن يكون الإنسان هو نفسه متطابقاً مع ذاته. والهوية خاصية للنفس لا للبدن، هي حالة نفسية وليست حالة بدنية⁹.

ومنه فإنّ أهمّ الصّفات الهوياتية على الترتيب تبدأ من الوجود الجغرافي في فضاءٍ حميمي يُسمّى "الوطن" الذي يُوطّر الحدود الديمغرافية لأيّ شعب على وجه الأرض، ثم تأتي اللّغة فضاء آخر يكون أكثر تقريباً بين وحدات هذه اللّحمة في تكوين الأنا الاجتماعي العام، حيث وحدة اللّغة تعني وحدة الوجدان ووحدة الوجود معاً بين سائر الأفراد داخل المجتمع؛ وأي إحلال لأية لغة طارئة أو بديلة يعني ذلك تشطير المجتمع ثمّ دفعه إلى صراعٍ مُفتعل بين

جيل متمسك بأصله اللغوي وبين جيل منمهر بلغة ترقى - في نظره - على لُغته البدائية المتخلفة.

3. الشعر الإفريقي والهوية الإنسانية:

إنَّ تمجيد الهوية الإنسانية يشيرُ إلى التركيزِ على ما يجمع البشر بدلاً مما يفرقهم. يعني ذلك احترام الاختلافات الثقافية والدينية، والتعبير عن التضامن والتفاهم. من خلال التفاعل الإيجابي، الذي يمكننا بناء جسور من التواصل الفعال بين الأفراد والمجتمعات، ممَّا يُساهم في تعزيز السلم والتفاعل الإيجابي على الصعيدين الشخصي والعالم.. ومُنذُ أواخر القرن الماضي إلى يومنا هذا تشهدُ القارة الإفريقية شعراً يَتميزُ بإفريقيته، فتمجيد اللون الأسود تحفلُ به كثير من قصائد شعراء إفريقيا وتحكي عن رجال الفحم ورجال المعجزة وينطقون بلسان الزلزال¹⁰.

إنَّ الشعر الإفريقي يشمل مجموعة واسعة من التعبيرات الأدبية في قارة إفريقيا، ويتنوع بين الشعر التقليدي الشفهي الذي يتم نقله عن طريق الحكاية والغناء والشعر المكتوب الحديث الذي يتناول قضايا متنوعة مثل الهوية والتحويلات الاجتماعية والتراث الثقافي.. ومن المعروف أن الشعر الإفريقي شعر تمرد وتحرر ضد كل عبودية واستغلال وظلم، وسعى إلى الانفلات من قيود الاستعمار في سبيل استرجاع الهوية والثقافة الإفريقية والإنسانية الضائعة بين مخالب المستعمر المعرصة للتهميش لقد كان الشاعر الإفريقي مناضلاً بقلمه وبمفرداته التي خلقها من مخاض العذاب وتهميش الذات وظلام الحاضر وهلامية المستقبل وانسداده، فحمل مشعل الدفاع عن هويته مديناً كل أشكال العنصرية مخلصاً الإنسان الإفريقي من عدمية واقعه من خلال تجربته الإنسانية "ولا يستطيع الدارس لهذا الشعر.. أن يغفل موضوع الحرية الذي شغل الجميع، وعبروا عنه بالتلميح أو التصريح، ولكن الحرية لم تكن عندهم حلماً وحسب، أو رمزاً وحسب، وإنما كانت - كما هي عند غيرهم - حقاً من حقوق الحياة والوجود"¹¹

4. الزنوجة وبؤس الوعي بالذات:

اهتمَّت أمم الأرض منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الراهن بالحفاظ على التميز والتفرد ثقافياً واجتماعياً، وإنسانياً، حيثُ سعتُ إلى أن يكون لها هويتها التي تُعينها في إعلاء شأنها بين الأمم في المجتمع الإنساني، وقد ساهم حضور الهوية في إرساء الوعي بالكينونة الثقافية والاجتماعية؛ ممَّا أدَّى إلى تفرد الشعوب عن بعضهم البعض، إذ الهوية جزء لا يتجزأ من

تنشئة الفرد الإنساني بدءاً من الولادة حتى الوفاة. وساعدت فكرة الهوية في تشكيل مجموعة من الصفات الخاصة بالشخصيات الفردية؛ لكون الهوية تُضفي على الفرد خصوصياته الذاتية، كما أنها تمثل تلك الصورة التي تعكس الثقافة، واللغة، والعقيدة، والحضارة، والتاريخ...

والهوية تُعين على إرساء قواعد وروابط من التواصل بين كل الأفراد سواء داخل مجتمعاتهم أو خارجها، من المجتمعات المختلفة عنهم الاختلاف الطفيف على اختلافات اللغة، أو الثقافة، أو الفكر، أو الاختلاف الشامل على كل الصُّعد. ومن بين هذه الخصوصيات قضية الزَّوجَة التي تمثل " العقد لجميع من القيم التي تميز الشعوب السوداء الثقافية منها والاقتصادية والاجتماعية والسياسية"¹²، وهي تمثل كل مقومات الثقافة الإفريقية داخل القارة وخارجها، فهي " فكرة عالجتها أعلام الزواج ونجد الشباب المعاصر في إفريقيا السوداء يمتلكون الثقة العالية بحاضرهم ومستقبلهم تجاه إفريقيا ومستقبلها في شتى مجالات الحياة"¹³.

1.4. الزَّوجَة عند أرماتوليون داماس:

تُطلق تسمية أدب الزَّوجَة على تيارٍ أدبي وأيديولوجي ظهر في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، خلال النصف الأول من القرن العشرين وإن كانت بداياته وجذوره النظرية سابقا على ذلك وخاصة ما نشأ منها في جزر الأنتيل والكاربي، وأمريكا. وقد ظهر هذا التيار كنوعٍ من صرخة الهوية وشقاء الوعي بالذات والمعاناة التي تكبدها الإنسان الأسود عبر قرون، ثم تحول تالياً إلى اتجاه مندرج ضمن اتجاهات ما بعد الكولونيالية، وخاصة مع تنامي حركات التحرر من الاستعمار في القارة السمراء ومنطقة الكاريبي¹⁴.

وقد تغنى الشاعر الإفريقي بززوجته وانتماءه للقارة السمراء واعتبر نفسه مرآة لها يعكس ألوانها ويعبر عن جراحها وآلامها حاملاً في نصّه أنشودة الحياة والحرية طارحاً إشكالية الهوية والانتماء للوطن، يقول الشاعر الغاني رافيل أرماتو في قصيدته "في أعماق الرجل الأسود" عن الزَّوجَة وتمجيد اللون الأسود والافتخار به يقول فيها:

إلهنا أسود

نادٍ عليه في الغابات

من التلال إلى الأحراش

دع الأحراش تسترجع الصدى

إلهنا أسود¹⁵

ولا يعني أنهم يدافعون عن لونها من باب العنصرية لأنهم قد جاوزوا منذ زمن بعيد
عقدة قشرة الانسان الخارجية لكنهم قصدوا بذلك التعويم الثقافي والجمالي والحضاري،
مستهدفين بذلك إنقاذ القارة من الشيوخوخة المبكرة والدعوة إلى وجود هوية حقيقية.
يقول الشاعر - شاعر من غينيا - " ليون داماس " مفتخراً بلونه الاسود في قصيدة
"البطاقة السوداء"

لن يكون الأبيض زنجياً قط..

لأنّ الجمال أسود..

والحكمة سوداء..

لأنّ التحمل أسود..

والشجاعة سوداء..

لأنّ الصبر أسود..

لأنّ الجاذبية سوداء..

والسحر أسود....¹⁶

وهكذا كانت الزنجية تحتل الصدارة في الشعر الإفريقي وإثبات الهوية الإفريقية فهو
صوتها وموسيقاه كما تمثل الزنوجة فلسفة تاريخ الإنسان الإفريقي بكل أبعادها الطبيعية
 والاجتماعية وصدامه مع الأمم المستعمرة والعنصرية ممثلة للنشاط الانساني بكل أبعاده
أكدت التزام الشاعر بوطنيته وقوميته .

2.4. الزنوجة في شعر الرئيس سنجور:

عرف بافتخاره بثقافته الإفريقية السوداء ورغم الرفاهية التي عاشها وسط عائلته
إلا أنه تولى عنها وعن الحياة السياسية وينتصر للكلمة معبرا بذلك عن شعبه وخصوصية
ثقافته الذي يعاني ويلات الاحتلال الفرنسي، وقد تأثر سنجور بالفكر الشيوعي الذي كان
من بين دوافعه الأولى لتأسيس حركة الزنوجة التي أثرت في واقع السود الأفارقة في العالم
ككل، ومن بين ما كتبه معبرا عن هويته القارية أول نشيد وطني سنغالي المعروف بالأسد
الأحمر وقد اصدر مجموعة من الدواوين الشعرية من أهمها أغنية الظلل، أثيوبيات، قرايين
سوداء، ليليات... وغيرها فأعماله تختصر رحلة نضاله ومعاناته الممزوجة بين لون البشرة

والاستعمار الفرنسي حاملا هموم بني جلدته "ملتزم بأشواقهم، ويقوده هذا الاكتشاف الأخير إلى إعادة اكتشاف إفريقيا"¹⁷.

يقول في قصيدته في "في الذكرى" من ديوانه "أغاني الظل":

ينتابني الخوف من وجوه زملائي الحجرية المزدحمة.

ومن برجي الزجاجي الذي تسكنه ألوان الصداق

والأسلاف القلقين

أرى الأسطح والتلال ملفوفة بالضباب

بالسلام، وأرى المداخن مهيبية وعالية

ينام عن سفوحها موتاي

يا لأحلامي صارت هباء كلبها

كل أحلامي

فالدّم يسفح بالمجان في الشوارع

ويختلط بدم المسالخ

.....

أشاهد أحلامي تتبدد في الشوارع

وتتمدد عند سفوح التلال

مثلما يتمدد أبناء جنسي

على ضفاف نهر جامبيا وسالوم

هوذا إذن نهر السين عند سفوح التلال¹⁸

نجد الشاعر هنا قلقا عن أبناء جنسه ومعاناتهم، ويبرز كيف أن أحلامه قد تبددت بسبب الحرب والاستعمار ولم يكن له ملجأ سوى ذكريات الطفولة وأحلامها، وخلاصة القول إن سنجور من خلال أعماله ورغم كتابته لها بلغة المستعمر إلا أنها جسدت ارتباطه الوثيق بأرض إفريقيا، ودفاعه عن قضايا شعبه أصحاب البشرة السوداء.

3.4. معنى الهوية عند الفيتوري:

أ. تمجيد معاني الإنسان الإفريقي، وكرامته،

يزخر الفضاء الشعري الفيتوري بصور شعرية متعددة الأدوار، تؤدي وظائف متنوعة في بنية النصوص الشعرية. هذه الصور ليست مجرد عناصر جمالية، بل هي جزء أساسي من تحليل بنية النص، وتمثيل مباشر ينطق عن الشاعر بالإفصاح عن هويته الانتمائية.

يُعدّ المنحى اللغوي في بنية الخطاب الشعري عند الفيتوري حالة استمرار متصلة، تمنح القصيدة طاقتها الخاصة في تشكيل عناصرها. هذه العناصر تتشكل وتتمظهر باللغة، وأوضح تجسيد لها هو تصوير الهوية في حالتها السكونية، وجوداً وشعراً. هذا التصوير يتعذر دون اللغة كوسيط تتكثف فيه الدلالات الثقافية والمدلولات اللغوية، لتضع هوية الشاعر ببعدها اللغوي والنفسي.

ونجد في شعر الفيتوري تجسيداً لثنائية المطابقة بين الهوية واللغة، وهي علاقة تماشى مع ما استقر في مباحث علم اللغة، سواء في قسمها الصوتي أو الدلالي. هذه العلاقة تمتد إلى مجالات الشعرية وعلم النفس ودراسات الفكر النقدي، مما يعكس تعقيدها وعمقها.

الهوية، في حيزها المستقل، تتطلب أشكالاً معرفية وإدراكية حسية متعددة للتعبير عن وجودها. وفي حالة الشاعر، تتكيف هذه الهوية وتحضر في بنية النص الشعري وفقاً لمحددات هذه الأشكال.

اللغة، كمنظومة تركيبية في وظائفها الأدائية، تعمل ضمن سياقات اجتماعية وأبعاد ثقافية محددة. في شعر الفيتوري، تقوم هذه اللغة على إدراك العلامات المتواضع عليها والمستخدم، بواسطة عناصرها ودلالاتها الثقافية، بغية التواصل بين عناصر هويات متعددة.

هذه العملية تستوعب تفكيك رموزات الهوية المستبطنة، والتي تنتقل إلى الخطاب الشعري بتجربة تستنفر قواها لتدعيم وإظهار الهوية. في شعر الفيتوري، نجد أن هذه التجربة الشعرية لا تكتفي بالتعبير السطحي عن الهوية، بل تغوص في أعماق التجربة الإنسانية والثقافية لاستخراج ما يعزز ويبرز هذه الهوية.

الصور الشعرية في فضاء الفيتوري الشعري تحمل في طياتها تاريخاً وثقافة وتجارب شعبه وأمته، ممزوجة بتجربته الشخصية الفريدة. هذه الصور تعكس وعياً عميقاً بالهوية الأفريقية والعربية، وتسعى إلى تأكيدها في مواجهة تحديات العصر. من خلال هذا المنظور اللغوي والهياتي المركب، يستطيع الفيتوري أن يرسم صورة متكاملة لهويته المعقدة، التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين الانتماء الأفريقي والعربي. وهكذا يصبح الفضاء الشعري الفيتوري ساحة تتفاعل فيها عناصر اللغة والهوية والثقافة، لتنتج نصوصاً شعرية غنية بالدلالات والرموز، معبرة بعمق عن تجربة الشاعر الشخصية وتجربة أمته في آن واحد.

لم يجد الفيتوري ضالته في الهويات المتعددة التي حاول الانتماء إليها، سواء كانت قومية أو عربية أو سودانية. هذا الأمر دفعه للبحث عن انتماء أوسع وأشمل، فوجد ضالته في القارة الإفريقية. شعر الفيتوري بأن الرابط الإفريقي يتفوق على غيره من الروابط في نفسه، مما جعله يكتشف هويته الحقيقية في إفريقيا ارتبط الفيتوري بإفريقيا من خلال عدة جوانب: العرق، واللون، والثقافة، والتاريخ، والمصير المشترك. كانت إفريقيا بالنسبة له وطناً بعيداً وغامضاً، لكنها في الوقت ذاته مثلت له الطريق والغاية. بدأ يصبغ صورة إفريقيا بمشاعره الخاصة، ويربط تاريخه بتاريخها. أسقط عليها معاناته الشخصية، ورأى فيها الخلاص الذي كان ينشده. هكذا، وجد الفيتوري في القارة الإفريقية الفضاء الرحب الذي يمكنه من خلاله التعبير عن ذاته وهويته بشكل أكثر عمقاً وشمولية، متجاوزاً بذلك حدود الانتماءات الضيقة التي لم تستطع احتواء تطلعاته وأحاسيسه.¹⁹ ولعل أقوى شيء يربط الشاعر بانتمائه الإفريقي هو الزنوجة واتخاذها منطلقاً لتحديد هويته وفي هذا يقول:

أنا الزنجي..

وأبي زنجي الجد..

وأمي زنجيه..

وأنا أسود..²⁰

ويوجه الشاعر رسالة احتجاج قوية إلى الرجل الأبيض قائلاً:

أَلَيْسَ وَجْهِي أَسْوَدُ

أَلَيْسَ وَجْهَكَ أَبْيَضُ

سَميتني عبدا
ووطئت إنسانيتي
وحقرت روحانيتي
فصنعت لي قيداً
وشرّبت كرمي ظالماً
وأكلت بقلّي ناقماً
وتركت لي الحقدا²¹

يرى الفيتوري أن الإنسان الأبيض يتبنى نهجاً عنصرياً يقوم على فكرة أن تأكيد الذات يتطلب عدم قبول الآخر. هذه النظرة تؤدي إلى رفض الإفريقي لمجرد لون بشرته الداكن.

رفض الفيتوري هذا المنطق بشدة، مؤكداً أن اللون لا ينبغي أن يكون سبباً لحرمان الإنسان من حريته. فالحرية، في رأيه، حق أصيل وفطري لكل إنسان، بغض النظر عن لونه أو عرقه. عبّر الشاعر عن هذه القناعة في أشعاره، داعياً إلى المساواة والاعتراف بالكرامة الإنسانية للجميع .

اتخذ الفيتوري موقفاً مناهضاً لهذا التفكير العنصري، مشدداً على أن السواد ليس مبرراً لسلب الحقوق الأساسية. سعى من خلال شعره إلى تأكيد قيمة الإنسان الإفريقي وحقه في الحرية والكرامة، متحدياً المفاهيم العنصرية السائدة في ذلك الوقت بقوله:

أسود لكني حرٌّ أمتلك الحرية²²

كذلك فإنّ الانسان الأسود في نظر الفيتوري يمتلك البصيرة والكفاءة وفي هذا يقول

الشاعر:

لا أكذبكم
في هذا الشرق، الشاعر يصبح كالقديس
وتقولون الكلمات تموت
ماذا يبقى للناس إذن
لومات كلمات الشعراء
الشاعر الزنجي من إفريقيا السوداء²³

ما يوصله إلى مستوى يقارب التقديس محولا إياه إلى ما يشبه نبيا لقارته فقد أصبح
صوتا لإفريقيا ورسولا لثقافتها حاملا رسالتها للعالم بإحساس يتجاوز الانتماء الوطني ليصل
إلى مرتبة الاتصال الروحي يقول الفيتوري في ذلك:

أسودُ قد أنضجته

مَو اقد الصَّحراء..

تفوحُ في إبطيه

رائحة الأنبياء..

وفي خطاه

جلال النبوغ والكبرياء .²⁴

إن الانتماء الجغرافي يحدد الهوية الثقافية فكل من يعيش على أرض إفريقيا يكتسب
الهوية الإفريقية بحكم واقعه وعليه فإن القارة الإفريقية تشكل الوعاء الذي يصهر هويات
سكنها مانحة إياهم طابعا إفريقيا مميزا وعلى هذا الأساس فأرض إفريقيا للأفارقة ولاحق
للغرباء فيها يقول:

أنا زنجيُّ..

وإفريقيتي لي لا للأجنبيِّ المعتدي²⁵

مؤكداً انتماءه الأفريقي مركزاً على رابطة الأرض والدّم قائلاً:

إفريقيا..

يا وطني.. يا أرض أجداديه

.....

إني أناديك

أنادي دمي فيك

يا إفريقيا الغالية

كذلك الشاعر يتجاوز حدود الحاضر في إبداعه، فكلماته تمتد عبر الأزمنة وتترك
أثرها في الأجيال المتعاقبة. إن نتاجه الأدبي يشكل جسراً يربط بين الماضي والحاضر
والمستقبل، حيث تستمر أفكاره وتعبيراته في الانتقال من جيل إلى آخر.

ويتميز إبداع الشاعر بقدرته على تخطي الحواجز الزمنية، فهو يستلهم من تراث الماضي ويخاطب معاصريه، بينما يترك إرثاً يستفيد منه من يأتي بعده. هذا التواصل عبر الزمن يجعل من الشعر وسيلة قوية لنقل الأفكار والمشاعر والتجارب الإنسانية، محافظاً على حيويته وتأثيره رغم مرور السنين. وفي هذا يقول:

ها هُنا واريثُ أجدادي.. هنا..

وهمُ اختاروا ثراها كفنناً..

وسأقضي أنا من بعد أبي..

وسيقضي ولدي من بعدنا..

وستبقى أرض إفريقيا لنا²⁶

تجلى عمق انتماء الشاعر وهويته في علاقته الوطيدة بإفريقيا. فقد ارتقت القارة في عينيه لتصبح رمزاً للحياة ذاتها، مكتسبة مكانة تقترب من القداسة. أضى تعلقه بإفريقيا يشبه الإجلال الديني، مجسداً بذلك عمق ارتباطه النفسي والعاطفي بأرضها وشعبها. في نظر الشاعر، تحولت إفريقيا من مجرد موطن جغرافي إلى كيان روحي يسمو بمشاعره ويلهم إبداعه. هذا الارتباط الوثيق عكس صلة وجدانية عميقة تجاوزت حدود الانتماء التقليدي، لتصل إلى مستوى من التقديس والإجلال. يصور الشاعر في كلماته صورة إفريقيا كمصدر إلهام لا ينضب، ومنبع للحياة والهوية. فقد امتزجت روحه بتراب القارة وثقافتها، مما أنتج علاقة فريدة تجمع بين الحب الوطني العميق والرؤية الشبه مقدسة لأرض أجداده وشعبه، يقول الشاعر:

وبلادي أرض إفريقيا البعيدة

هذه الأرض التي أحملها ملء دماي

والتي أنشَقُها ملء الهواء

²⁷والتي أعبدُها في كبرياء

وقد بلغ تعلق الشاعر بإفريقيا ذروته، حتى غدا وكأنه جزء لا يتجزأ منها. فقد ارتقى حبه للقارة إلى مستوى سام، حيث أصبحت في نظره كياناً مقدساً يتماهى مع الوجود الإلهي. في رؤية الشاعر، تحولت إفريقيا إلى أكثر من مجرد وطن أو قارة؛ إنها أصبحت تجسيداً للروحانية والقداسة. هذا الامتزاج العميق بين الشاعر وأرضه تجاوز حدود الانتماء الوطني ليصل إلى مرتبة التوحد الروحي. لم يعد ممكناً في عالم الشاعر الداخلي الفصل بين صوت

إفريقيا وصدى الخالق. فقد تداخلت الحدود بين حبه لوطنه وإيمانه الروحي، مشكلة وحدة متكاملة في وجدانه وإبداعه. هكذا، أضحت إفريقيا في شعره ورؤيته مرآة للجمال الإلهي وصدى لصوت الخالق في الأرض. يقول:

صوتك يا إفريقيا

.....

أحبه لأنه صوتي أنا

صوتك يا إفريقيا..

صوت الاله²⁸

وهذا الصوت صوت إفريقيا الذي جسد روحها الثورية التي نهضت لتحريرها وإعادة تشكيل مصيرها هذا الصوت قادها نحو آفاق جديدة ورأسما لها ملامح مستقبل مضيئ مبرهنا على قوة ثقافتها وعمق حضارتها وفي هذا يقول:

لا تعرف موت الكلمات

فيها من صوت إفريقيا

شعب زنجي الكلمات²⁹

وهذا الانسان الافريقي يقف شموخا معتزا بجذوره وهويته القارية متصديا بكل قوة لمحاولات محو تراه وانكار وجوده إنه يعتبر كفاحه من أجل تحرير افريقيا والدفاع عن كرامتها معركة تتجاوز حدود القارة يقول الفيتوري:

اكتب يا جبار الأحزان

اكتب باسم جلال الانسان

باسم وجوه خلف القضبان..

من أجل عيون الحرية

من أجلك يا إفريقية

اكتب في فجر البشرية³⁰

بهذا وظّف الفيتوري مشاعره العميقة وحسه المرهف للتعبير عن همومه وقلقه إزاء محنة الشعوب الإفريقية. فقد سخر قلمه لتصوير معاناتهم من التهميش والإقصاء، وكشف الستار عن وضعهم المأساوي في ظل سياسات القوى المهيمنة عالميًا. بحساسية

فائقة، رسم الشاعر صورة حية لواقع القارة الإفريقية المر، حيث تُدفع شعوبها إلى هامش الاهتمام العالمي. وقد نجح في تسليط الضوء على التناقض الصارخ بين ادعاءات ما يُسمى بالقوى العظمى وممارساتها الفعلية تجاه إفريقيا .

ومن خلال كلماته المؤثرة، عبّر الفيتوري عن رفضه القاطع لوضع إفريقيا في خانة المهمل والمنبوذ. فجاء شعره صرخة مدوية في وجه الظلم، ودعوة صادقة لإعادة الاعتبار لكرامة الإنسان الإفريقي وحقه في الحياة الكريمة..

5. خاتمة:

- إنّ الشّاعر الإفريقي تبنى هُمووم إفريقيا وتشخيص مشكلاتها، وخلص إلى أنّ الأفارقة ليسوا أكثر الناس وحشية، ولكنهم تعرضوا للقهر والاستغلال، وقد ضلت إفريقيا مهمشة وتفتقر إلى التطور، وتفتقر لمن يروض (الفيل الإفريقي)، والهوية الإفريقية ظلت سؤالاً محيراً يتأرجح بين الانتماء القومي والعرقى والقاري والانتماء الكوني، وبين اللون والطباع والأمزجة التي ارتبطت بالدونية عند أصحاب النظرة العنصرية إلى خصوصية وتميز، يعتز بهما ومواجهاً كلّ تعددية إلى وحدة إفريقية مضيئة، لا تشوبها العنصرية وضيق الأفق والانغلاق والاعتصاب والإلغاء والانتهاك والطمس الهوياتي، وقد حاول الشاعر الإفريقي إعادة تعريف هويته مجدداً عبر مراجعة مكوناتها وحذف كلّ ما هو غير أصيل فيها، وفحصها ومساءلتها وإعادة تأويلها، عبر إرادة واثقة في قدرة الإنسان الإفريقي على ضمان مكانته الكونية وضمان حياته فيها .

- تشبّع الشّاعر الإفريقي بقضاياها، وتيقن من أنّ دوره يكمن في حمل مشعل النضال ضد كلّ من يحاول محو ثقافته وتراثه وهويته وظلّ يُسجل حضوره القاري بمعالجة كلّ قضاياها واقفاً ضدّ كلّ تيارٍ غربي يُريد محو هويته، وقد استعمل الشاعر الإفريقي لغة تعكس ثراء وتعددية الهويات الإفريقية للتعبير عن التنوع الثقافي والموروث التاريخي بشكلٍ فريدٍ ومتنوعٍ ختاماً، أرى أنّ الهوية الإفريقية تمّ تمثيلها في الشّعر الإفريقي على نحوٍ جيّد بحيث ساهم في إبرازها وقد غطى الشّعر موضوعاتٍ وأبعاد متعدّدة تعكس صورة القارة الإفريقية نصاً وهامشاً، وقد أبرز مناطق ثقافية وإنسانية مسكوت عنها أو مهمشة ومغيبة عن المشهد العالمي من قبل الآخر الأوروبي لأغراض معروفة لازال يبذل قصارى جهده لتهيئتها.

مراجع البحث وإحالاته:

- ¹ ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، بيروت، ج 6 / مادة هو و ص.
- ² محمد يعقوبي، معجم الفلسفة، دار الكاب الحديث، القاهرة، ط 1، 2008، ص 174.
- ³ مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المعجم الوسيط "الهو" والهوية.
- ⁴ ينظر: باية بوز غاية. العربي، بن داود. إشكالية الهوية والعولمة الثقافية، الجزائر: مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد: 3، العدد: 5، 2011، ص 659.
- ⁵ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1982. ج 2/ ص 357.
- ⁶ جيلاني بوبكر، اللغة والهوية والعولمة بين اللغة والاصطلاح، 2024-12-08، الرابط: https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=8985
- ⁷ ينظر: عبد الرحمان بدوي، الموسوعة الفلسفية، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط 1، 1984، ص 569.
- ⁸ ينظر: والي طارق، الهوية والإنسان والعمارة، محاضرة عن تعريف الهوية وتأثيرها على العمارة بتاريخ 22 نوفمبر <https://www.walycenter.org/ar/events/29-events/events/404-human-identity-2018-architecture-msa-lecture>
- ⁹ حسنين حسن حنفي. الهوية، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 2012، ص 17.
- ¹⁰ لورنس كورباندي كوديس، دراسة في الادب الإفرقي الحديث، الدار اللبنانية المصرية، ص 47
- ¹¹ علي شلش، الأدب الإفرقي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، مارس 1993، ص 66
- ¹² جمال محمد أحمد مطلعات، في الشؤون الإفرقية، دار الهلال القاهرة، العدد 218، ماي 1969 ص 87
- ¹³ لورنس كورباندي كوديس، دراسة في الادب الإفرقي الحديث، ص 39
- ¹⁴ أنظر : مقال أدب الزنوجة الصوت يخترق جدار السوط، مركز الاتحاد للاختبار، 2015
- ¹⁵ لورنس كورباندي كوديس، دراسة في الادب الإفرقي الحديث، ص 47
- ¹⁶ لورنس كورباندي كوديس، دراسة في الادب الإفرقي الحديث، الدار اللبنانية المصرية، ص 48، 49
- ¹⁷ علي شلش، الأدب الإفرقي، ص 59
- ¹⁸ ليوبولد سنجور، أغاني الظل نقلاً عن علي شلش، الأدب الإفرقي، ص 61
- ¹⁹ محمود أمين العالم، مقدمة ديوان أغاني إفرقيا، ديوان محمد الفيتوري، المجلد، م، س ص: 35 36
- ²⁰ محمد الفيتوري، أغاني إفرقيا " ديوان محمد الفيتوري " المجلد م، س ص 59
- ²¹ المرجع نفسه ص، 62

²² محمود أمين العالم، مقدمة ديوان أغاني إفريقيا، ديوان محمد الفيتوري، المجلد، م، س ص: 59

²³ المرجع نفسه، ص 183

²⁴ محمود أمين العالم، مقدمة ديوان أغاني إفريقيا، ديوان محمد الفيتوري، المجلد، م، س ص: 59

²⁵ المرجع السابق، ص : 62

²⁶ المرجع السابق، ص 48 ، 49

²⁷ المرجع نفسه 58

²⁸ محمود أمين العالم، مقدمة ديوان أغاني إفريقيا، ديوان محمد الفيتوري، المجلد، م، س ص: 79

²⁹ المرجع نفسه : ص 245، 246

³⁰ المرجع نفسه : ص 267

مراجع البحث وإحالاته:

1. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت.
2. محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، بيروت، ج6.
3. مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المعجم الوسيط/؛الهو والهوية/
4. جمال محمد أحمد مطلعات، في الشؤون الإفريقية، دار الهلال القاهرة، العدد 218، ماي 1969.
5. علي شلش، الأدب الإفريقي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، مارس 1993.
6. لورنس كورباندي كوديس، دراسة في الادب الإفريقي الحديث، الدار اللبنانية المصرية.
7. محمود أمين العالم، مقدمة ديوان أغاني إفريقيا، ديوان محمد الفيتوري.
8. مقال أدب الزنوجة الصوت يخترق جدار السوط، مركز الاتحاد للأخبار،
https://www.aletihad.ae/artic2015
9. عبد الرحمان بدوي، الموسوعة الفلسفية، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 1984، ص569.
10. محمد يعقوبي، معجم الفلسفة، دار الكاب الحديث، القاهرة، ط1، 2008، ص174.
11. جيلاني بوبكر، اللغة والهوية والعولمة بين اللغة والاصطلاح، 2024-12-08، الرابط:
https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=8985
12. حسنين حسن حنفي. الهوية، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2012، ص17.
13. والي طارق، الهوية والإنسان والعمارة، محاضرة عن تعريف الهوية وتأثيرها على العمارة بتاريخ 22 نوفمبر 2018.

https://www.walycenter.org/ar/events/29-events/events/404-human-identity-architecture-msa-lecture